

انسانية نضال الامّة العربيّة

الأمّة العربيّة في مرحلة ثورية^(١) ، وقد قدر للطليعة بأن ترى هذه الحقيقة منذ سنين طويلة ثم تتالت الأحداث لتبرهن على هذه الحقيقة حتى وصلنا اليوم الى حد أن الاعداء أنفسهم يكادون يعترفون بها، أي أن الغرب الاستعماري وعلى الأقل بعض فئاته الشعبيّة أخذت تدرك ذلك فضلاً عن الشعوب الأخرى في البلاد ذات النظم الاشتراكية والشعوب الآسيوية والافريقية المتحررة حديثاً من الاستعمار والمناضلة في سبيل التحرر.

فهناك إذن شروط أساسية تهيأت للامّة العربيّة قديماً وحديثاً لتخمير ثورة جديدة وعميقة وشاملة أصبح العالم اليوم، مثل العرب، استعجالاً لها واحتياجاً اليها: يشعر بالحاجة اليها ويستعجلها لأنه يدرك بأنها لن تقتصر على حل مشاكل العرب بل ستسهم في حلّ مشاكل العالم. هذه الشروط يكفي أن نشير الى عناوينها. نحن نستند الى تراث قومي أصيل، تجلّى في نهضتنا الأولى في القديم، وبالرغم من كل ما طرأ عليه من جمود وتشويه ونسيان، فقد بقيت فيه عناصر حيّة تسري في حياتنا سريان الماء تحت الأرض وتحيا في تقاليدنا الشعبيّة وقيمنا الاخلاقية. ثم طرأت على الأمّة العربيّة ظروف قاسية جزأتها وأشاعت فيها الفوضى والفرقة والخلل في التوازن الاجتماعي وسمحت بدخول الأجانب الى أجزاء من أرضنا وحدثت مآسي كثيرة لاحد لها ولا حصر أطفأت أو كادت تطفىء شعلة العبقرية العربيّة فتخلينا مئات من السنين عن مهمة الابداع والمساهمة في الحضارة وتحمل المسؤوليات الانسانية اللائقة بأمة كريمة حرة، ثم كان آخر المطاف،

(١) من أحاديث الرفيق القائد المؤسس في زيارته الاولى لبغداد بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

الاستعمار الغربي الذي جاءنا بألوان من العدوان والافساد والارهاب لم يعرفها العالم من قبل . وأخذت البلاد العربية تقع فريسة هذا الاستعمار، الواحدة تلو الأخرى من الجزائر الى تونس فالعراق فالجنوب العربي . . الخ .

ويجب أن نعرف بأن الانحطاط الذي بدأ منذ مئات السنين والذي أدى أخيراً الى

دخول الاستعمار الغربي ببلادنا لا يجوز أن يفسره عاملان فقط :

١ - عامل خارجي .

٢ - عامل داخلي .

بل تفسيره الحق هو بوجود العاملين معاً . أولاً منا نحن ، فنحن مسؤولون عنه . وثانياً بقوة خارجية معتدية استطاعت أن تدخل وتستغل الضعف الداخلي وأن تضخمه وتستغله الى أبعد الحدود وهذا شأن الاستعمار الغربي فانه استخدم كل علمه الحديث ووسائله الحديثة لاليقصر على الاحتلال العسكري وفرض سلطته بالقوة والارهاب فحسب بل ليدخل كالسم في جسمنا القومي ويستفيد من الأمراض الداخلية فيضاعفها أضعافاً، وهكذا حاول أن يفرق أشد الفرقة بين أبناء الوطن الواحد ليس بين قطر وآخر فحسب بل بين الطوائف ومختلف الفئات وخلق نعرات وعصبيات ومفاسد لانحلال الأخلاق وتدهور القيم . فامة يمر عليها كل هذا اما أن يقضى عليها نهائياً تحت الكابوس وتحت ثقل الوطأة الاستعمارية فتتلاشى . واما أن يكون فيها من مقومات الحياة ومن مقومات البعث ما يسمح لها بأن تنتفض وتتغلب على كل هذا وتخرج بثورة جديدة تستفيد من كل هذه المصائب والألام لتقدم الى الانسانية تجربة جديدة عميقة . والشيء الثاني هو الذي حدث . إذ أن أمتنا العربية لم تمت بل انتفضت وكانت هذه المآسي والمحن بمثابة الحافز لها والعامل المخصب . . . أخصبت روحها وحركتها ودفعتها الى مزيد من التعمق والصدق فبدأت تحاسب نفسها في الوقت الذي بدأت فيه تحاسب أعداءها كان واضحاً قبل عشر أو عشرين سنة بأن هذه الثورة لها ملامح الاصاله . . كان واضحاً منذ ذلك الحين أن أهم الأشياء وأقدس الأمور بدأت تطرح على النفس العربية وتوضع موضع التساؤل فهذا ان عنى شيئاً فيعني الثورة الأصيلة . ثم فعل الوعي الجديد فعله في الشعب وبدأنا بالصعود بعد التدهور

والانحدار ودخل العرب مرحلة جديدة وأصبح لهم شأن في العالم ومازالوا في بداية الطريق .

أيها الاخوان

تسمعون كثيراً ولعلكم أنتم تقولون أحياناً دون تمحيص للفكر والقول ولعلنا كلنا نتفوه بمثل هذه الأشياء المرتجلة غير الدقيقة فنقول بأننا بذلنا جهوداً ضخمة ولم نصل الى نتائج . كثير من العرب في العراق والبلاد العربية كانوا يستطيعون هذه الثورة وكانوا يتكلمون عن الجهود الكبيرة التي تبذل بدون نتائج . وكنا ندرك ان هذا كلام عاطفي لا يستند الى الواقع فالواقع هو اننا لم نبذل بعد ما يقتضي من جهود وأن انتصاراتنا في السنوات الأخيرة هي أكثر مما نستحق ، بالنسبة الى ما بذلنا من جهد ، لابل بالنسبة الى ما نستحق في الحقيقة ، عندما تظهر هذه الحقيقة كل الظهور . الواقع أن عوامل كثيرة خارجة عنا وعن جهدنا وإرادتنا تساعدنا في هذه الانتصارات ، العصر كله متجه نحو الحرية والتحرر وتصفية الاستعمار ونحن نمشي في تيار العصر وطليلة هذا التيار ، وهنا يكمن الخطر بالنسبة لهضمتنا إذا نحن ظننا بأن هذه الانتصارات كلها من فعلنا وهذا يغرينا بالتكاسل والتواكل وبأن نداري نفوسنا ونجاملها ونداري أوضاعنا ونجبن عن إعادة النظر فيها حتى الجذور . إن الواقع العربي يشير الى أن في شعبنا العربي إمكانيات هائلة لم يستثمر منها بعد إلا الجزء اليسير وإن نهضتنا لازالت مخضمة بين القديم والحديث ، بين التطور والثورة ، وانها لم تتسم بعد بالثورية الكاملة ونحن لو استسلمنا لهذا الانخداع والوهم المريح بأننا عملنا ما يجب وأكثر مما يجب فسيأتي يوم يُصفى فيه الاستعمار - وليس هذا ببعيد - ليس بفعلنا فحسب وإنما بفعل شعوب الأرض كلها وعندما يزول الاستعمار نخشى أن نفتح عيوننا على فراغ أو ما يشبه الفراغ ، على لاشيء حققناه . أن التاريخ معنا والعصر والحق . فيجب أن نكون نحن مع الحق والتاريخ ، أي أن نبذل أعمق الجهد والارادة وصدق النظر لنستحق أن يكون الحق في جانبنا .

فالثورة الأصيلة هي التي تتميز أولاً بالايجابية ، بثقة بالنفس ولاكتنفي برد الفعل وبأن نصوّب انظارنا دوماً نحو الأعداء ونعدد مساوئهم وحقارتهم واثمهم . الثورة الأصيلة هي التي تنظر في آن واحد وأولاً الى نفسها باعتبار ان هذا هو الأساس والحقيقة

الكبرى وأن الاستعمار والأشياء الخارجية هي نتيجة لضعف الداخل .

هذه الثورة في اصالتها تشترط علينا أن نطبق على أنفسنا نفس القيم والمقاييس التي ندين بها الظلم الخارجي ، والأستعمار الخارجي ، نفس القيم التي ندعو بها شعوب العالم لتساعدنا . يجب أن نستلهمها لكي تهدم مايجب أن يهدم من واقعنا وفي رفع بناء جديد .

فالشبه بيننا وبين الغرب في الواقع ضعيف جداً أو غير موجود . فالغرب لم يمر بما مررنا به من مآسي وآلام ومن خضوع للاستعمار والتجزئة . الخ . . فالحركات القومية الغربية نشأت في ظروف مختلفة مصحوبة بالطموح واكتشاف ثروات جديدة واكتشاف العلم الحديث بقوانينه فأصبحت منذ ولادتها بأمراض التوسع والسيطرة . ولكن حركتنا القومية نشأت كأعمق جواب إنساني على ظلم الانسان للانسان . . على المصير الانساني بكامله . نشأت ثمرة ناضجة لكل هذه الآلام التي عاينها بانفسنا وكأننا عاينها نيابة عن شعوب الأرض كلها فالاحتمال ضعيف بأن ننتهي الى حيث انتهى الغرب .

وهكذا ترون أن لاشيء في حياة الأمم والبشر يمر دون أن تكون له نتائج . . . كل الظروف تترك آثاراً قريبة وبعيدة فيجب أن نحاسب أنفسنا عن كل شيء ونعتبر أنفسنا مسؤولين ليس عن حاضرنا بل عن مستقبل أجيالنا ومستقبل العالم .

هناك حقيقة ان اغفلناها فأننا لن ندرك معنى الثورة والثورية ، هذه الحقيقة هي ان الحياة شيء متصل ، فالمستقبل يولد من الحاضر ومستقبلنا القريب والبعيد مائل تحت بصرنا وبين أيدينا نصنعه ونعجته بأفعالنا وتصرفاتنا وتفكيرنا وأنه كائن كالبلور وسيضج ويكتمل مع الزمن . فلننظر ملامح مستقبلنا في حاضرنا . . . ننظر الى أي مدى نخلص لمبادئنا الثورية ليس بالكلام والتصريحات والكتابة وإنما في التطبيق والممارسة . كيف نعامل الشعب وباعترافنا هو المبدأ والغاية والأساس والركيزة الوحيدة ، له نعمل وبه نعمل لأنه هو الذي يناضل وهو الذي يبني . كيف نربي هذا الشعب وبحترمه ونحترم إرادته وحرية؟ . . . هل نعامله معاملة القاصر . . . هل نعامله بالكلام ونحتقره في أعماق نفوسنا؟ . . هل نتودد له بالظاهر ونخاف منه بالحقيقة؟ . .

كيف نربيه لكي يصبح مسؤولاً ولكي يحمي هذه الثورة لأنها ثورته . . والقيادات تتغير وتزول ولكن الشعب يبقى . فإن لم تستغل هذه القيم والمثل لخدمة واقع الشعب الثوري ولم تصبح جزءاً من دمه ولحمه وإذا لم تصبح شيئاً أصيلاً فيه، فلن يحمي ثورتنا شيء وسوف تفشل ويعود علينا الاستعمار الى أمد ما، لأننا لم نحرض على ثورتنا - ولم نخلص - لمبادئنا وأهملنا شعبنا الذي هو وسيلة الثورة وغايتها .

تموز ١٩٥٨